رهانات نظرية وتطبيقية لبناء قاموس تاريخي للغة العربية

الدكتور خالد اليعبودي
كلية الآداب، الرباط

يتسم حقل الصناعة القاموسية بالاطراد، شأنه في ذلك شأن المجال النحوي، فكلّ بنية بالقاموس تقوم بوظيفة محدّدة، تنتظم في متوالية من الروابط مع بقية البنى، وهي روابط تتميز بالتقابل من جهة، كما هو الحال في التضادّ بين الخير والشرّ، المكتوب والمنطوق (إلخ)، كما تتميّز أيضا بطابع الاقتران كما هو حال السلسلة الاشتقاقية في متوالية من قبيل: "خرج، خراج، خروج، استخرج، استخراج، مستخرج.. إلخ."

لا ينكشف معنى الوحدة القاموسية (: المدخل) سوى بمراعاة هذه الروابط التي تشكل حقلا يخصّ هذه الوحدة؛ وبالتالي، فلا اعتبار للكلمة مستقلة، إذ لا يتحدد معناها سوى بارتباطها بباقي الوحدات التي تشكّل محيطها العام.

لم يعُد مُجديا بعد تطور الصناعة القاموسية الاقتصار في تحديد معاني المداخل على جرد مرادفات ومتضادات كلّ مدخل، كما ثبُت من الدرسين الدلالي القديم والحديث أن لا وُجود لترادف مطلق بين وحدتين من وحدات اللغة.

إنّ تحديد معنى الوحدة القاموسية لا يتأتى دون استحضار البُعد الزمني [التعاقبي]، نظرا لخضوع اللغة للتطور، وبالتالي يتعذّر في الكثير من الحالات أن تحتفظ الوحدة القاموسية بمعنى ثابت طوال العُصور، فاستمرار الأجيال يعكس استمرار تجدّد العربية، لا أدلّ على ذلك ولادة ألفاظ لم تُستعمل من قبل، ك: "الاشتراكية"، و"الرأسمالية"، و"الشيوعية"، و"الإقطاعية" وغيرها كثير؛ إنما تخضع الوحدة القاموسية لتحوّلات ناتجة عن استعمالات متباينة تبعًا لتباين الرصيد المعجمي المستعمل لدى كلّ فئة من فئات المجتمع وتنوّع المستويات اللغوية، وقد حدّدها المرحوم "أحمد مختار عمر" في مستويات متعددة[1]. ما يُثبت أن اللغة أداة اجتماعية في التواصُل، مع أنّ القاموس ينحو نحو إخراج وحدات اللغة من عالمها التخاطبي وإخضاعها للانتظام عبر بوّابة التدوين.

حتما لا وُجود لعملٍ منتهٍ في مجال البحث العلمي، ومن المؤكّد أن الصناعة القاموسية تندرج ضمن البحوث العلمية لأنها تستند إلى منهجٍ علميّ، وتتوسّل بالتنقيب عن مستجدّات الوقائع اللغوية، لا سيما ما ارتبط منها بمراحل تفتقد إلى التوثيق والتدوين كما هو حال المرحلة الجاهلية والعصور الأولى للعربية، وبالتالي فعنصر التحيين عنصرٌ أساسيٌ في بناء المتون المعجمية بشتى أصنافها.

---

[1]- أعدنا ترتيبها على النحو الآتي: 1-إيجابي قرآني تراثي، 2- إيجابي قرآني، 3-إيجابي تراثي، 4-إيجابي معاصر، 5-مصطلح علمي، 6-من لغة المثقفين، 7- رسمي، 8-مولد أو محدث، 9-لهجة أو لغة محلية، 10- سلبي، 11- مبتذل، 12محظور. انظر: أحمد مختار عمر ورفقاءه، المكنز الكبير، معجم لغوي متخصص للمترادفات، الطبعة الأولى، سطور، 1421/2000، الرياض، المملكة العربية السعودية، دليل التصنيف.

تتجلى الحاجة إلى التحيين في ضرورة تحديث المعلومات المرتبطة بالوحدات اللغوية في كل فترة زمنية نظرا لتجدّد اللغة عبر توالي الأيام، ما دفع الخبير بصناعة القواميس "آلان راي" (Alain Rey) في حوار الذي أجراه معه "آلان فينستاي" (Alain Veinstein)[1] إلى اعتبار هذه المتون المعجمية (بما فيها الموسوعات) نتاجات عابرة (Euphémère) ، أي أنها غير قارّة ولا ثابتة.

غير أنّ الموسوعات أشدّ حاجة إلى التحيين من القواميس في هذا العصر الذي يعرف تطوّرات سريعة في لغاته الخاصة مقارنة مع التحوّلات التي تعرفها اللغة العامة، علما أنّ مصنف الموسوعة أكثر تحررًا من القاموسي في معالجة المعلومات المتصلة بالمدخل.

نعلم توقيت بداية العمل في تصنيف قاموس جدير بهذه التسمية؛ غير أنه لا قدرة لنا على تحديد زمن الانتهاء من تصنيفه، نظرًا لحاجته المستمرة إلى التنقيح والإضافة والتعديل والحذف.

إنّ عمليات التحيين لا تقتصر على المداخل وإنما تتصل أيضا بالتعريف، ذلك أنّ صياغة تعريف مدخل سواء تعلق بكلمة أو اصطلاح تبقى نسبية، لأن التعريف المثالي لا يخلو من ادعاء تملّك الحقيقة. بما أن طلب العلم ليس له نقطة نهاية، فكذلك تحيين قاموس اللغة عملية مستمرة ما دامت اللغة حية متجدّدة، وقد سبق للقاموسيّ "ليتري (Littré) " (1881-1801)أن قال: "سأبقى طالبًا للأبد" ، وهو ما تضمنته أمثال عربية خالدة: "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد. "

تتمثل الخطوة الرئيسة في نقد المعاجم والقواميس – علاوة على فحص آليات الصناعة القاموسية المعتَمَدة في التصنيف- في استكشاف ما أهملته من زوايا أو مجالات أو مداخل. إن ثبوت الإهمال حجةٌ لنهج انتقائي في التصنيف، وهو ما لا يتماشى مع أهداف القاموس المفصّل.

من المُحتَّم أن الألفاظ المبتذلة ونظيراتها الدالة على مواقف عنصرية تُجاه الآخر تعتبر جزءا لا يتجزّأ من اللغة لذلك لا يصحّ استبعادها من القاموس لهذا الغرض. وإذا أحصينا عدد الوحدات اللغوية المبتذلة بقاموس "أحمد مختار عمر" ورفقائه، من جنس ألفاظ الشتم والسبّ، سنجد أنها قليلة العدد، وهي منعدمة الوجود بمعاجم وقواميس أخرى.

نتساءل في هذا السياق: لماذا نجد مفاهيم متصلة بالتربية الجنسية بقواميس لغات العالم المتقدم؟ ولا نجدها بالقاموس العربي، كما لا نجد قواميس عربية مخصصة لمثل هاته الحقول الدلالية. نحيل في هذا المقام على قاموس يضمّ زهاء سبعة آلاف لفظة وتعبير في هذا الحقل، وهو للساني: "بيير كيرو (Pierre Guiraud): "Dictionnaire érotique, Payot, France, éd 2006".

---

[1] - Du jour au lendemain, avec Alain Rey -Transcription par Taos Aït Si Slimane de l'émission Du jour au lendemain, diffusée sur France Culture le jeudi 22 novembre 2007, où Alain Veinstein s'entretient avec l'auteur, Alain Rey, de deux livres : Miroirs du monde : une histoire de l'encyclopédisme et L'amour du français contre les puristes et autres censeurs de la langue.

لا يُعتبر ثراء الحضارة العربية الإسلامية المسجّل في القرون الهجرية الأولى (لا سيما بعد القرن الثالث إلى القرن الثامن) مسوّغا للإسهاب في تحرير الأجزاء المرتبطة بهذا العصر الذهبي واختزال الأجزاء المتصلة بباقي الحقب؛ إنما يُستحسَن التقيّد بمواصفات كمية في تحرير المداخل بجميع الحقب مع إمكانية تخصيص مصنفات خاصة بما يستلزم من التفصيل في المحطات المُمَيّزة خدمة للقارئ المتعطّش الراغب في الاستزادة.

من المؤكد أنّ العربية لا تنتمي إلى العرب وحدهم، إنما لها علاقة بمختلف الشعوب الإسلامية، بل بجميع الأفراد الراغبين في الاطلاع على دقائق هذه اللغة من مختلف دول العالم.

إنّ حصر البحث عن معنى وحدة لغوية داخل القاموس في مرحلة محدّدة، لا يستلزم بالضرورة تحديداً مسبقاً لنطاق الشرح والتعريف، ذلك أن هذا التحديد يتقيّد بطبيعة الوثائق المتوفّرة عن هذه المرحلة وبمدى الغنى الدلالي لهذه الوحدة بمدوّنة النصوص المنتمية لهذه الحقبة الزمنية. لنقارن مثلا بين أفق استكشاف معنى المدخل "كلام" في ثلاثة مراحل متميّزة: المرحلة الجاهلية، والمرحلة العباسية، والمرحلة الحديثة. لا شكّ أن وفرة المعطيات بالمرحلتين الأخيرتين أكثر جلاء من المرحلة الأولى بسبب ازدهار علم الكلام في المرحلة الثانية واحتدام الجدال في مسألة اتخاذ موقف من موضوع كلام اللّه: أهو قديم؟ أم محدث؟ كما أنه أكثر بروزا بالمرحلة الثالثة التي عرفت نشأة اللسانيات الحديثة وبلورة التمييز بين ثلاثة مفاهيم أساسية في محاضرات "دي سوسير" :(De saussure) "اللسان " (Langue)، "اللغة(Langage) "، "الكلام.(Parole) "

لا أحدَ يُجادل بأنّ توفير قاموس تاريخي للغة من اللغات الطبيعية يُشكّل محطة بارزة في ثقافة هذه اللغة، لا سيما إذا كانت من اللغات العريقة كحال العربية التي كانت فيما مضى اللغة الأولى بأقطار المعمور في مراحل أوج الحضارة العربية الإسلامية، لا سيما بتقدّم الصناعة القاموسية في العصر الحديث وتطوّر مناهج البحث الفيلولوجي والتوثيق، وعلى أثر ثورة التقنيات المعلوماتية التي أتاحت إمكانية بناء مكانز للغة وبنوك للمدوّنات والكلمات والمصطلحات.

إنّ التصميم على بناء قاموس تاريخي للغة العربية (في القاهرة وتونس وفاس والدوحة والشارقة) تسليم ضمني بحركية هذه اللغة وبأنها غير مرتهنة بمعايير زمنية تقننها كما كان حال منْ تقيّد من الأسلاف بعصور الاحتجاج؛ إنما تستمدّ طاقتها من ثراء رصيدها المعجمي كما تجلى في معلقاتها العشر التي ازدانت بها أستار الكعبة، ومن إعجاز لغة القرآن الكريم، ومن استجابتها كذلك لمقتضيات العصر سواء في مراحل تبلور الحضارة العربية الإسلامية وفترات إشعاعها أو في المراحل الحديثة التي دُشّنت بما سُمّيَ بـ"عصر النهضة" إلى أيامنا هاته.

الراجح أن الساسة بأقطارنا العربية سائرون على نهج بقية الحضارات التليدة حينما كان الحكام حافزا وراء بناء الموسوعات الكبرى، لنقارن في هذا الشأن مبادرة المسؤولين عن بناء معجم الدوحة التاريخي، ومعجم الشارقة بمبادرات الحكام في الحضارة الصينية القديمة لبناء الموسوعات الكبيرة.

وقد ثبُت أن الأزمة لا تتمثل في اللغة العربية؛ إنما تكمن أساسًا في مدى حُبِّ اللغة العربية، كما تتمثل في سُبُل استثمارها في التعبير. يضيف "آلان راي (Alain Rey) "أنّ الأزمة تتمثل في طريقة توظيف اللغة"[1].

شهدت الصناعة القاموسية تحوّلات جذرية عبر مراحلها المتعددة من المخطوط إلى المطبوع إلى الرقمي، وهي تحوّلات أثّرت إيجابا على طرق التصنيف لأن الوسيلة المعلوماتية يسّرت إمكانات الجمع والوضع (انتقاءً وترتيبًا وتعريفًا وتحيينًا) مع إمكانية تجديد بنى القاموس في وقت قياسي، دون استحضار عامل التكلفات المادية الباهضة التي كانت ترهق كاهل دور النشر في عمليات الطباعة بشتى أصنافها وأشكالها مما كان يشكّل عائقا أمام مصنفي القواميس ممن يرغبون في التطلع إلى تحقيق هدف الإحاطة. وبما أن الورقي لا زال ملازما للرقمي (خلافا لتكهنات السيميائي "إمبرتو إيكو (Emberto Eco) "الذي رجّح اختفاء المنشورات الورقية بعد سنة 2000 وحلول الرقمية بدلها)، فمن المنتظر أن تتقدّم الصناعة القاموسية العربية إذا صُمِّمت مشاريعها من لدن ناشر مثقفٍ غيور على نموّ العربية، كما من المحتمل أن تلزم مكانها أو تقهقر إذا كان وراءها ناشر يستهدف الرّبح بالمقام الأول.

وإذا كان من المجازفة أن نعتبر القاموس التاريخي وسيلة من وسائل استكشاف المعرفة؛ فلا نبالغ إذا أكدنا أنه في أدنى الحالات وسيط اجتماعي ييسّر الولوج إلى المعارف بشتى حقولها وتخصصاتها. إذ ننتقل في القاموس التاريخي من عالم الوحدات اللغوية التي يتقيّد بها القاموس إلى عوالم المعارف الصريحة والضمنية التي تحيل عليها هذه الوحدات، وهي عوالم تظلّ مفتوحة باستمرار نظرا لتجدد المعارف وتطورها الدائم.

يقوم القاموس التاريخي بدور تثقيفي وتربوي ويعكس الحياة الحضارية للغة هذا المتن المعجمي. يستحقّ القاموس التاريخي - دونما حاجة للوقوف عند حدود تجربة الفيروزآبادي- أن يُنعت بـ"المحيط"، غير أن التسمية تتيح إمكانيتين في آن واحد: إمكانية الإبحار عبر أمواجه المتلاطمة، وإمكانية الغرق أيضا لمن لا خبرة لهم في معرفة مفاتيح ركوب هاته الأمواج.

يُجمع الكثير من الدارسين على أنّ الترتيب الألفبائي هو الترتيب الأكثر فوضوية، غير أنه يجمع – في سياق فوضويته- شتات مجالات متعددة في نطاق واحد. لذلك لجأ الخبير بصناعة القواميس "آلان راي" إلى قلب معادلة عضو الأكاديمية الفرنسية "جان كوكطو" (1889-1963) (Jean Cocteau) القائلة بأن "قمّة الإبداع الأدبي ليست سوى قاموسًا مرتبًا ترتيبا فوضويًا" ، فحوّلها إلى النقيض بقوله: القاموس ترتيب فوضوي للإبداع الأدبي المتميّز.

- اللغة موضوع شديد الدينامية والحركية.

يتحدث الكثير من النقاد عن فوائد الترتيب المفهومي ونجاعته في الحفاظ على الروابط الأسرية القائمة بين المفاهيم المنتمية إلى حقل واحد، مع تناسي أن متصفحي المعاجم والقواميس يوثرون بدله الترتيب الألفبائي لسبب واحد يتمثل في الجانب النفعي، إذ غالبية هؤلاء تنفر من فكرة تقليب صفحات كثيرة من المتن في بحث عن هدفهم المنشود، وتودّ الحصول على المطلوب في أقصى سرعة ممكنة. يشيد في هذا السياق الدارسون

[1]- نفس المرجع السابق.

الغربيون بالموسوعة الفرنسية التي أشرف على إصدارها "أناطول دي مونزي Anatole De) " (Monziابتداء من سنة 1932، غير أنه يحصر أهمّ أسباب عدم انتشارها في: استنادها~ في تصنيف محتوياتها~ إلى الترتيب المفهومي.

لولا فوائد التقنيات المعلوماتية في الجمع والوضع والتحيين والنشر لاحتاج المصنفون إلى طاولات تحتل عدة فراسخ طولا لترتيب مواد العمل قبل الشروع في التحرير واستثمار الجذاذات.

فمن فوائد هذه التقنيات الجليّة: تعميم نشر القاموس على أوسع نطاق بفضل إتاحة محتوياته على الشابكة، وبذلك تتحقق نبوءة "ريشليه (1626-1698)(Richelet) "التي قيلت منذ أزيد من ثلاثة قرون: "القاموس ملك للجميع، ما يستلزم الكثير من المحطات والوقت لبنائه ."

من أمثلة إدراج المواقف الإيديولوجية بالقواميس ما وقع من انزياح للغة الألمانية في عهد النازية، إذ تمّ تحوير بعض التعريفات لتتوافق مع توجهات الحكم النازي.

إنّ أوّل بابٍ تطرقه اللغة العربية في إنماء رصيدها هو باب الوضع اللغوي الذي يتوسّل بأنساقٍ صرفية (عبر "الاشتقاق" و"النحت")، وأنساق دلالية (عبر "الوسيلة المجازية")، وأنساق تركيبية (عبر إجراء "التأليف")، وهي أنساق تحتل الأولوية باللغة العربية قبل أن تسمح باللجوء إلى الاستيراد من الخارج ("الاقتراض")، أي أنها تمنح السبق للوسائل التوليدية الداخلية قبل أن تُرَخِّصَ لإدخال عناصر لغوية غريبة وافدة إلى منظومتها المتميزة بخصائص تختلف عن خصائص اللغات المقترض منها.

إننا لا نلمح التطور اللغوي بين حقبة وأخرى فقط؛ وإنما نعاينه أيضا عند الكاتب الواحد حينما يعمد إلى تطوير أسلوبه بين تصنيف وآخر. يُلاحظ التفاعُل بين الكلمات بعضها ببعض وبين الكلمات والأفكار المعبِّرة عنها، ثمّ بين الكلمات والأفكار من جهة والعالم الخارجي من جهة أخرى، دليل ذلك عدمُ مسكوكية العلاقة بين المراجع والعلامات والرموز التي تحيل عليها.

إن صعوبة المهامّ الملقاة على عواتق بُناة المشروع الكبير~المتمثل في القاموس التاريخي للغة العربية~تتجاوز ضرورة توفير مدوّنة شاملة وبرامج مُحوْسبة قادرة على تمثيل المعطيات المرتبطة بالمداخل، إذ يُضاف إلى ذلك مصاعب رصد التنوّعات الجغرافية للاستعمالات اللغوية في مرحلة زمنية واحدة بحُكم تأثير نمط التفكير وطبائع الإقليم.

من المؤكّد أنّ اللغة الساكنة لغةٌ جامدةٌ، فالأحوال الاجتماعية لمتكلمي اللغة في تغيُّر مستمرٍ، والمؤسسات تشهد تحوّلات بدورها، والعلوم تقدِّم اختراعات تحتاج إلى استحداث تسميات جديدة. يكفي أن نغيِّر وجهتنا نحو فئة اجتماعية مغايرة، أو نحو علم مغاير، أو فن مُغاير، أو تقنية مُغايرة أو نحو منطقة أخرى، بل أحيانًا نحو تصنيف جديد ينتمي إلى ذات العصر أو ذات الكاتب لنعاين هذا التطور الذي يلحق دوالّ اللغة ومدلولاتها.

تسمح لنا الدراسة التأثيلية للألفاظ متابعةَ انتقال الفكر البشري من تشكيل الدلالات البسيطة إلى الدلالات المركّبة والمعقّدة.

إنّ الثبات المطلق في اللغة لا وُجود له باللغات الحيّة كما يشير إلى ذلك "دي سوسير" في محاضراته[1]. تستند اللسانيات التعاقبية على مبدإ الاستبدال في دراستها لعناصر اللغة بتتبّع حلول عنصر لغوي محلّ آخر على امتداد الزمان؛ بينما تهتم اللسانيات التزامنية (Linguistique synchronique) بالعلاقات القائمة بين الوحدات اللغوية في متن ينتمي لفترة زمنية بعينها.

ويتضح أنّ بناء القاموس التاريخي يقوم على البُعدين التزامني والتعاقبي معًا، وقد شدّد "دي سوسير" في محاضراته على أنّ اللغة سيلٌ منهمرٌ يجري دون توقّف، وأشار إلى ثانوية الالتفات إلى معدّل الجريان، أهو قويّ متدفق أم ضعيف وناعم (نفس المصدر)، وإنْ سلّمنا برأي "دي سوسير" القاضي بأن ليست اللغة الأدبية المعيار الذي يكشف لنا عن قابلية اللغة الطبيعية للتطور أو للتغيّر؛ غير أننا نرى أن تحديد مدى التطور لا يخلو من أهمية حينما يتعلق الأمر برصد حالات التغير التي تلحق الألفاظ بين حقبة وأخرى، ذلك أنها أكثر وفرة في عهود الازدهار مما هي بعهود الانحطاط .

إنّ أشدّ ما يُحذر منه، ليس "الاشتقاق من المعرَّب" كما ادّعى السيوطي، (فقد اقتضت ضرورات العصر التعامُل مع اللفظ الدخيل بمحاولات إخضاعه لنسق العربية بغرض استخراج سلسلة من المشتقات منه، كما هو حال: "درهم"، "دَرْهَمَ"، "مُدرهَمٌ" -قديمًا- و"فسْبَكَ"، "يُفسبِك" إذا تواصل عبر "الفيسبوك" – حديثًا-)؛ وإنما لزم الحذر أكثر من التأثيل المُتوهّم ما سُمّي ب"التأثيل الشعبي(Etymologie populaire) "، قدّم "دي سوسير" أمثلة عنه في توهّم انحدار كلمة "Sourdité" من"Sourd" ، بينما الثابت في الواقع اللغوي: "Surdité"[2] ، واعتبره تأثيل العوامّ. ومن حالات التأثيل المُتخيّل (: المُتوَهَّم) ["الاشتباه في الاشتقاق" بلغة "ابن فارس" في "المجمل"] لدى لغوينا الأقدمين: اشتقاق "الخيل" من "الخُيَلاء"، واشتقاق "الحِرجير" من "الجرّ".[3]

.إنّ تحيين المنجز من القاموس التاريخي لا يخصّ فقط إضافة مداخل جديدة؛ وإنما يرتبط أساسًا -إضافة إلى مراجعة طبيعة المداخل- بمراجعة الدلالات المدوّنة بالتعريف وسياقات الاستعمال والمتلازمات اللفظية، كما يرتبط أيضا بالإيحاءات التي يُوحي بها المدخل في أيّ عصر من عُصور حياة اللغة العربية.

إنّ نجاح أيّ قاموس (وضمنه: القاموس التاريخي) رهينٌ بغنى مضامينه ودقة معلوماته وحداثة وصف مداخله، وتقيُّده بأسس الصناعة القاموسية التي شهدت في العقود الأخيرة تطورا ملموسًا.

من معالم تطوّر القاموسية الولوج إلى عالم التراكيب والمتلازمات اللفظية، من المؤكّد أنّ الشغل الشاغل لغالبية القاموسيين: تدوين المداخل القاموسية البسيطة، ويندُر أن يُخَصَّصَ قاموس عربي مُفصّل للعبارات والمتلازمات اللفظية الأكثر تداولاً، صحيح أن بعض

1- يُراجع القسم الثالث من المحاضرات المعنون: "اللسانيات التعاقبية (La linguistique diachronique)) "

De saussure (1916) ; cours de linguistique générale, édition 1995. Payot . Paris.

2- انظر الباب السادس من محاضرات "دي سوسير"(Etymologie générale)

3- يُنظر: باب الاشتقاق في كتاب "المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي، تح: جاد المولى، محمد أبو الفضل، علي البجاوي، منشورات المكتبة الصرية ، بيروت.

-خالد اليعبودي، (1995)، محاولة فهم جديدة للصرف والاشتقاق العربيين، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، ظهر المهراز، فاس. الفصل الثاني من الجزء الأول.

المتلازمات ترد كمداخل فرعية بالتجارب القاموسية العربية ضمن المداخل البسيطة، غير أنّ تصنيف قواميس للمتلازمات المتداولة في اللغة العربية عبر عصورها المتلاحقة لا زال يشكو من فقر مدقع في نطاق الجهود القاموسية العربية.

المتلازمات اللفظية تراكيب تتآلف فيما بينها في تواردات متنوّعة، ترد في هيئات متعدّدة، يشتمل مجموع عناصرها على معنى خاصّ يختلف عن معنى كل عنصر من عناصر التأليف، تسمى أيضا: عبارات اصطلاحية، وتعابير مسكوكة. من هيئاتها الأكثر تواردا باللغة:

-مضاف ومضاف إليه: "علامات المرور"، "يوم القيامة."

-موصوف وصفة: "التربية الوطنية"، "معاداة السامية."

-فعل وفاعل ومفعول: "ضرب أخماساً في أسداس "

تقتضي الموضوعية في تصنيف القاموس التاريخي أن لا ينتصر مصنّفوه لمذهب دون آخر أو لموجة فكرية دون أخرى، كما كان حال قاموس "ديدرو" و"الامبير" (1750- 1772((Diderot & Alambert) (Encyclopédie, ou Dictionnaire raisonné des sciences, des arts et des métiers)، وقد ناهَضَا عبر مضامين القاموس الموسوعي الفكر الكنسي ومظاهر الشعوذة مِمّا مهّدَ لبروز إرهاصات إيديولوجية الثورة الفرنسية، إنما يستلزم في بناء القاموس التاريخي عرض شتى مظاهر الفكر دون تحيّز إقليمي أو جغرافي أو عقدي (سني/ شيعي، كاثوليكي/ بروتستانتي) ليكون صورة أمينة عن التجليات الاجتماعية والنفسية والعقدية.

لنلق نظرة عاجلة على قاموس رجُل الكنيسة "فوروتيير" (1619-1688) (Furetière)قاموس الفرنسية الكلاسيكية) لنُعاين هذا المثلب في التصنيف القاموسي.

كما استشفّ "آلان راي" انطباعات شخصية عكسها "بيير لاروس Pierre) " (Larousseفي "قاموس لاروس المفصّل(Le grand Larousse) "، وهي أفكار تعكس ميله للأفكار الجمهورية .

لا أحدَ ينفي تطور اللغة العربية على عدة مستويات لا سيما على المستويين المعجمي والأسلوبي، وقد جرى هذا التطور بطريقتين:

- طريقة اعتباطية وعرضية تماشيًا مع سُنّة التطور التي تخصّ سائر الكائنات الحية.

-طريقة مقصودة حينما يضطرّ أفراد المجتمع إلى استحداث ألفاظ عامة واصطلاحات خاصة لمواكبة التطور الحضاري، ولمجاراة لغات الأمم المتقدمة.

لا أحد يُماري في الفوائد القصوى للتقنيات المعلوماتية وأثرها الإيجابي في حياتنا المعاصرة وفي الصناعة القاموسية بالتحديد، سواء بجمع مدوّنة شاملة (أو تنحو نحو الشمول) ومتنوّعة تتضمن الكثير من الاستشهادات والأمثلة، أو بوسم عناصر هاته المدوّنة وسْمًا صوريًا، وهو الوسم الذي يُيَسّر عمليات تحرير القاموس.

من التطورات التي لحقت الصناعة القاموسية تغيّر الرؤية إلى القاموس، إذ لمْ يعُد يُلجَأ إليه بغاية نفعية محضة لاستكشاف معنى لفظة أو عبارة مُلغِزة؛ وإنما غدا وسيلة للاستزادة المعرفية، وأصبحَ ذخيرةً معرفية تتصل بالكثير من المعارف عدا اللغة والأدب. وقد ثبَتَ للكثير من الغيورين على العربية بعدما تابعوا تجارب لغات الأمم المتقدّمة في بناء قواميسهم التاريخية أن "المعجم الكبير" الذي لا زال أعضاء المجمع القاهري يجهدون لإتمام أجزائه لنْ يكون بديلاً عن القاموس التاريخي ولا كُفؤا له.

إنّ نسب الاستناد إلى التأثيل أوضح بقاموس يؤرّخ لمسيرة لغة دوّنت ذاكرتها منذ أزيد من ثمانية عشر قرنًا، نظرًا لتفاعُل العربية مع نظيراتها السامية ولاحتكاكها بالكثير من اللغات الأخرى سواء بإقراضها أو بالاقتراض منها.

تحتلّ المصادر الأدبية نصيب حصّة الأسد من مدوّنة قاموس تاريخي؛ غير أن المصادر التاريخية والدينية والعلمية لا تخلو من أهمية، لا سيما في لغة (ك: العربية) شهدت تحوّلات جذرية بنزول كتابها السماوي (لنتابع كتاب "الرازي": "الزينة في الكلمات الإسلامية" لنعاين هذا التحوّل)، كما أنّ كُتب التفسير وجوامع الآثار النبوية وكُتب العلوم والفنون تشكّل رافداً من روافد هذه المدوّنة التي تتوخّى تحقيق هدف الشمولية.

من ميزات القاموس التاريخي أيضا تخلصه من قيود الاحتجاج التي فُرضت على مصنفي القواميس القديمة الوقوف عند زمان محدد وحدود جغرافية محصورة، ذلك أن القاموس التاريخي يُدَوِّن عربية جميع العصور، ويُسجِّل جميع المستويات اللغوية (ما عدا المستوى العامي) دون الانتصار للذوق أو للمعايير الجغرافية، إذ يُمكن لمدونته أن تضمّ عربيات الجزيرة وأرض الكنانة والغرب الإسلامي، بل عربيات الدول الإسلامية كخليج فارس وشبه جزيرة الأناضول والمناطق الأسيوية بالشرق الأقصى.

غالبا ما يتمّ التمييز بين قاموس اللغة والموسوعة من حيث كشف الأول عن مضامين الكلمات، وتطرّق الثانية للمعارف الإنسانية؛ غير أنه لا يخفى أن التعريف يجمع بين النوعين، ذلك أن تعريف الموضوع في الموسوعة يستلزم بالضرورة تعريف الكلمة (أو المصطلح) التي تمثله.

وارتأى آخرون ضرورة التمييز بين أسماء الأعلام (Noms propres) الحاضرة بالموسوعة والأسماء العامة (Noms communs) القائمة بقاموس اللغة، غير أنه تمييز يفتقد إلى المصداقية بسبب عدم اشتمال قاموس اللغة على الأسماء العامة فقط؛ إنما يشتمِل أيضا مداخل تنتمي إلى خانات الأفعال والصفات والظروف، بل والأدوات النحوية-الروابط.

لا شكّ أن ما يُثبتُ عدم نجاعة الفصل بين الموسوعات وقواميس اللغة على أساس التمييز بين أسماء الأعلام والأسماء العامة أننا نجد مداخل فرعية بقواميس اللغة عبارة عن أسماء أعلام، تتفرّع عنها سلسلة من المشتقات، كما هو الحال مثلا في الاسم: "نرجِس"، إذ تتفرّع عنه: "النرجسية" و"نرجسيّ"، والاسم: "صهيون" الذي تتولد عنه: "الصهيونية" و"صهيوني"، و"صهاينة"، والاسم "داروين" وما يتفرّع عنه من: "داروينية"، و"داروينيّ"، الخ.

علاوة على أن الموسوعات لا تعير انتباها للأدوات النحوية والروابط، إذ لا مُسوّغ لمصنف الموسوعة يدفعه إلى إدراج مداخل: "ليس" و"أينما"، و"هكذا"، وحروف الجر وحروف العطف، ما عدا إذا تعلّق الأمر بموسوعة لسانية تكشف عن دلالات المفاهيم النحوية وتعمد إلى حصر وحداتها، كما نجد بموسوعة علوم اللغة العربية لإميل بديع يعقوب.

قلّما يلتفتُ مؤلف الموسوعة إلى تأثيل المدخل الذي يقوم بتعريفه، ولا يقدّم مرادفاته ولا أضداده، ولا استعمالاته المتباينة بتباين السياق. إنما يتمثل المعيار الأساسي في التمييز بين قاموس اللغة والموسوعة في مقدار المعلومات المرتبطة بالمداخل.

إنّ جرد مختلف الاستعمالات اللغوية للوحدة المعجمية (المدخل القاموسي) (أو جرد غالبيتها) يُساعد المتلقي على بناء جُمل وتراكيب ومتلازمات لفظية تختلف دلالاتها بتعدّد السياقات والمقامات.

إنّ ادعاء مُصنّف متن من المتون المعجمية (أو فريق العمل المكلّف بإنجازه) [سواء أكان معجما أم قاموسا أم موسوعة أم قاموسا تاريخيا] تحقيق هدف الشمولية هو من قبيل المُهاترة، فعدد وحدات اللغة غير محصور بدقّة نتيجة استمرار اللغة في توليد وحداتها والاقتراض من لغات أخرى سواء في اللغة العامة أم في اللغات الخاصة القطاعية. كما أنّ نسب إدراج المصطلحات في قاموس اللغة العامة وضمنه القاموس التاريخي غير محصورة بدقة نظرا لحركية اللغة من جهة ونتيجة لاكتساب الكثير من المفردات العامة صفة الاصطلاحية وتحول مجموعة من الاصطلاحات إلى مفردات عامة من فرط كثرة استعمالها في اللغة العامة وفي المتداول اليومي، وانتشارها بالخطابات العلمية المُيسّرة.

إن تحقيق هدف الشمولية في بناء قواميس اللغات العريقة [ومن ضمنها العربية] هدفٌ أقرب إلى الطوباوية بسبب ثراء هذه اللغات، ونتيجة التمازج بين ما هو لغوي وما هو تاريخي وحضاري. اللغة وعاء للتاريخ وذخيرة نابضة تزخر بالنتاجات الحضارية.

علما أنّ لا القاموس الموسوعي ولا القاموس التاريخي ولا الموسوعة يمكّننا من تحقيق الشمولية، أي رصد مجمل وحدات اللغة وتراكيبها.

يُشير "آلان راي (Alain Rey)" في الحوار السالف الذكر إلى أن الموسوعة لم تطمح سلفا إلى أن تكون مرآة للعالم، بقدر ما تحرص على تقديم الوسائل الناجعة للولوج إلى المعارف، والراجح أن مقصوده: تمكينُ تحديد المفاهيم بدقة من الولوج إلى وظائف المفهوم وارتباطاته بمفاهيم أخرى.

قد مرّت العربية عبر مراحل متعدّدة، اقتصرت في مراحلها الأولى على تدوين الحروف مهملة دون نقط ولا حركات، لتنتقل في مرحلة موالية بغرض تيسير تداولها من لدن الموالي إلى النقط والإعراب، إذ فتحت الأبواب بعيدا عن التعصّب لاستقبال الأجناس غير العربية.[1]

تتميّز مداخل القاموس التاريخي بالتنوّع، لا سيما إذا تعلّق الأمر بتسجيل واقع لغوي ينتمي إلى مرحلة حضارية متميّزة، إذ يُمكن لهذه المداخل أن تشمل رصدا معجميا ينتمي إلى عوالم التربية والثقافة العامة والعلوم والتقنيات ومجالات الحضارة كالبناء والعُمران والأطعمة وفنون الطبخ، كما تحتلّ المقترَضات نسبة لا يُستهان بها.

إنّ الهدف من بناء القاموس التاريخي للغة العربية وصفُ اللغة المشتركة بين جميع العرب، دون حصرها في منطقة جغرافية دون أخرى، ودون الاقتصار على حقبة دون أخرى.

يُراعي بناة القاموس التنوّعات الإملائية لبعض الألفاظ (إله، إلاه) (عبد الرحمن، عبد الرحمان)، (دشيش، جشيش)، (خَرْشَف، خَرْشف)، (قُرْطُمان، هُرْطمان)، ووجود أشكال مختصرة لبعضها كما هو الحال في الترخيم (فاطمة – فاطم)، والمختصرات والرموز العلمية مع ضرورة ربط الرمز أو المختصر بالمصطلح الذي يقترن به، مع توخي الحذر من جلب الرموز العلمية الغربية وتدوينها بحروف عربية دون العمل على تأصيلها. إذ يتوفر الرمز على إيحاءات لا تُنقل باستحضار الرمز، من لغة الأصل إلى اللغة الهدف.

1- رُوي أنّ أبا الأسود الدؤلي عبّر عن ذلك بقوله: "هؤلاء إخوة، رغبوا في الإسلام، ودخلوا فيه، فصاروا لنا إخوة، فلوْ علّمناهم الكلام". عن السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيني و محمد عبد / الطبعة الأولى / 1374هـ - 1955م، ص: 18.

تحتل الرموز الواسمة لطبيعة المداخل أهمية قصوى، نظرا لدورها في تيسير الفهم والاستيعاب لدى المتلقي، فهناك رموز واسمة لأقسام الكلم (س= اسم)، (ف= فعل)، (ح= حرف)، (ظ= ظرف)، (ض= ضمير). وهناك رموز واسمة تختصّ بتحديد طبيعة الأفعال (ف.ل= فعل لازم)، (ف.م= فعل متعدي)، ورموز واسمة تختصّ بتحديد مدى قابلية جمع الأسماء (س + ج= اسم قابل للجمع)، (س – ج = اسم غير قابل للجمع)، تزداد أهميتها حتماً لدى فئة متعلمي اللغة العربية لغة ثانية .

يمكن أن نعتبر المنحوتات جنسا من الاختصار، بما أن اللفظة المنحوتة تُنحت من كلمتين أو أكثر، ولنا في التراث منحوتات تختزل ألفاظا متعدّدة، كما هو الحال في: "الحوْقلة" (أو "الحولقة") [نحت لعبارة: "لا حول ولا قوة إلا باللّه"، و"الهيللة" [نحت لعبارة: "لا إله إلا اللّه"] و"الدمعزة" [نحت لعبارة: "أدام اللّه عزك"]، وهي كثيرة العدد، قام السيوطي بجردها في كتابه "المزهر في علوم اللغة وأنواعها."

إن الفرصة سانحة لبُناة القاموس التاريخي للغة العربية - بما أنهم ينشدون التأريخ لمحطات الحضارة العربية الإسلامية عبر رصيدها المعجمي- لكي يُراجعوا جملة من المختصرات اقتحمت متون العربية توسّلت بنهج نقل الحروف الأولية لكلمات أنجليزية تخص تسميات مؤسسات ومنظمات عربية. من أمثلة ذلك:

مختصر : "ألكسو Arab League Educational Cultural and Scientific " = " Organisation alecso"

ومختصر: "إسيسكو isesco "= "Islamic Educational Scientific and Cultural Organisation "

إنه نهجٌ ينتصر للتغريب سيرا على منهاج سبك مختصرات منظمات عالمية، من قبيل: "اليونسكو "UNESCO" = "United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization]وحلف "الناتو.[North Atlantic Treaty Organization] "NATO" = "

أمّا العلة الداعية إلى ضرورة إعادة النظر في هذه المختصرات أنها تخصّ مؤسسات عربية، وبالتالي لا يُعقل أن يتداول العربي أسماء منظمات عربية بمختصرات تحاكي نهج لغة أجنبية في اختصارها. خلافًا لأسماء الأعلام وأسماء الأمكنة التي تتخطّى حاجز اللغة لتتداول بلغات متعدّدة.

إن ظاهرة انتشار الاختصارات الجامعة لأوائل الكلمات في اطراد مستمر، لا سيما باللغات الغربية، نلقي إطلالة على بعضها:

BHV= رمز دال على متجر شهير بباريس الفرنسية
ودال أيضا على مقاطعة ببلجيكا .

BNP= دال على البنك المركزي الفرنسي
ودال أيضا على الحزب الوطني البريطاني

SDN =

- Société des nations
- Software Defined Networking
- S4C Digital Networks

UDF=

- Union pour la démocratie française

- United Democratic Front
- Union démocratique fédérale
- Universal Disk Format
- Format universel de disque
- Front démocratique uni

CGT=

- Fédération des transports CGT
- Confédération générale du travail
- Confédération générale du travail de la République argentine
- Confederaci□n General del Trabajo de la Rep□blica Argentina
- Confédération générale des travailleurs
- Compagnie générale transatlantique
- Confédération générale des travailleurs grecs

CCP=

- Communication en champ proche
- Concours communs polytechniques
- Communauté de communes du Pernois
- Centre de chèques postaux
- Certification de conformité produit

HLM=

- Habitations à loyer modéré
- habitation à loyer modéré
- Habitation à loyer modique

IVG=

- Interruption volontaire de grossesse en France
- Interruption volontaire de grossesse

PME=

- Petites et moyennes industries
- Petites et moyennes entreprises
- Productores de M□sica de Espa□a

OPA=

- Offre publique d'achat
- Organisation des Pays Alpins
- Organisation des fédérations de ski des pays alpins
- Ouvrier des parcs et ateliers

ZUP=

- Zone à urbaniser en priorité

OVNI=

- Objet volant non identifié

SIDA=

- syndrome d'immunodéficience acquise

يتضح من الأمثلة السابقة أنّ بعض المختصرات وغالبيتها تسميات مخصصة لشركات ومؤسسات ومنظمات دولية وأحزاب ونقابات تحظى بتعريف موحّد وتستعمل في حقل معرفي واحد، بينما مختصرات أخرى تنطبق على موضوعات متعددة وتستعمل في حقول معرفية متنوعة، لذلك لا مناص من تأصيل هذه المختصرات، مع إلحاق المفردات التي اختزلت أوائلها بين قوسين تفاديا للبس في استعمالها وفي استكشاف دلالالتها.

لا ضير في وجود المقترض باللغة العربية شريطة أن لا يتخطى النطاق المعقول ضمن الرصيد المعجمي للعربية، إن دخول الاصطلاحات الأجنبية الوافدة من لغات العالم المتقدّم إلى متن العربية دليلٌ على التلاقح الحضاري بين الشعوب، ولا ننكر أنّ بعض هذه الاصطلاحات اكتسبت صبغة عالمية بالنظر إلى تداولها بلغات متعددة.

بإمكان التنوّعات النطقية [والصوتية] أن تحظى باهتمام مصنفي القاموس التاريخي لأنها شكل من أشكال إثراء الرصيد المعجمي، كما أنها تعكس أحيانا اختلافا لهجيا بين منطقة وأخرى، لنأخذ كمثال على ذلك: "جذب" و"جبذ"، تظهر هذه التنوّعات بجلاء في تدوين الكلمات الدخيلة، كما هو حال: "سيمياء"، "سِمياء"، "سيميائيات"، وكتابة بعض أسماء البُلدان والدول بالتاء المربوطة بدلاً من الألف كما في "سورية" بدل: "سوريا"، و"فرنسة" بدلا من "فرنسا"، و"أنطاكية" بدلا من "أنطاكيا"...وغيرها كثير. ومن ذلك أيضا الاختلاف في تدوين الألف الطويلة أو الألف المقصورة، كما في: "موسيقى"، "موسيقا."

من الضروري أن نشير في هذا الصدد أن الاحتكاك بلغات أجنبية واقتراض مصطلحاتها مع محاولات تأصيلها أسهم في تضخيم أعداد المركبات بشتى بنياتها في اللغة العربية، نكتفي هذا الصدد بالإحالة إلى ما أورده المرحوم الدكتور "رشاد الحمزاوي" في مقاله "الصدور واللواحق وصلتها بتعريب العلوم ونقلها إلى العربية الحديثة" المنشور بمجلة "مصطلحيات"[1]، نقتطف منه القائمة التالية :

متغيّر اللون	Allochromatique
احتكاك باطني	Internal friction
مذبذب لا توافقي	Oscillateur anharmonique
المغنطيسية الحديدية المضادّة	Anti-ferromagnétisme
ملفات متحدة المحور	Bobines coaxiales
كربون مزيل الألوان	Carbon décolorant
أملاح عديمة الذوبان	Sels insolubles
مائع غير قابل للانضغاط2	Fluide incompressible

- أهمية المثال والشاهد:

---

[1]- " - العدد السابع، محرم 1436 هـ/ دجنبر 2014، ص ص: 93-134.

[2]- محمد رشاد الحمزاوي (2014)، الصدور واللواحق وصلتها بتعريب العلوم ونقلها إلى العربية الحديثة، مجلة مصطلحيات، العدد السابع، محرم 1436 هـ/ دجنبر 2014، ص ص: 112-117.

يختلف الاستشهاد عن الاقتباس بالاقتصار في الاقتباس على اللفظ دون المعنى، مع عدم لزوم توثيق الكلام المقتبَس، بينما يُستلزم في الاستشهاد التقيّد باللفظ والمعنى مع توثيق النسبة. يُلجأ إلى الشاهد لتعزيز فكرة ما وللاستدلال على صحتها، يُستخلص في العربية من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والأشعار المندرجة ضمن عصور الاحتجاج ومن الخطب والأقوال المأثورة. ولا سبيل إلى إهمال نسبة الشاهد إلى قائله في تحرير مواد القاموس التاريخي، وهو مشروع يتوخى الدقة والشمولية، فقد أصبحت عبارات من قبيل: "كما قال الشاعر" دون تحديد غير مقبولة في عصرنا الحالي المتميز بالتطور المعلوماتي الذي مكّن من جمع المعارف الكونية في أوعية صغيرة الحجم وذات سعة في التخزين، كما لا يجوز ارتكاب خلل في التوثيق، بإرجاع الشاهد إلى غير قائله. ولا شك أن الاختيارات الأدبية المصنفة من لدن الأسلاف والتي تماثل مشاريع الموسوعات الكبرى خير المصادر لاستخلاص الاستشهادات، من ذلك: كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني، وكتاب " الأمالي" لأبي علي القالي، وكتاب " العقد الفريد" لابن عبد ربه، و"أدب الدين والدنيا" للماوردي، و"المقابسات" لأبي حيان التوحيدي، وغيرها كثير، غير أنه لا يغيب عن ذهننا أن شواهد استعمال العربية في العصر الحديث يلزم بداهة استخلاصها من نماذج أدبية وفكرية حديثة تتميز بالرقيّ والنبوغ، من أمثال كتابات طه حسين وصادق الرافعي ومصطفى المنفلوطي ونجيب محفوظ ومبارك ربيع والطاهر وطار والطيب صالح وجبران خليل جبران، وغيرهم كثير، وبالتالي فلكل عصر نماذجه التي تعكس واقع اللغة وتنوعات الاستعمال.

لا نعدم أن نجد قولة أديبٍ يُشدِّد على أهمية المثال في القاموس، يقول "فولتير" في هذا المضمار: "القاموس دون مثال مجرد هيكل عظمي"، يوضّح "آلان راي" سياق هذه القولة بالإشارة إلى أنها ملاحظة وجّهها "فولتير" ل"ديكلو" عضو الأكاديمية الفرنسية، يشير فيها إلى أهمية توثيق الأمثلة[1].

تُستبعد الأمثلة والشواهد الركيكة والمبتذلة والمجهولة المصدر، وما هو من نسج خيال المصنف، بغرض أن تعكس المقتطفات واقع اللغة العربية الفصيحة في حقبة بعينها.

- على سبيل الختم:

يعترض مشروع بناء قاموس تاريخي للغة العربية يرصد محطات لغة الضاد بجميع مستوياتها وفي جميع عصورها عقبات توصيفية وتصنيفية لا مناصّ من رفعها لتحقيق أمل الغيورين على هذه اللغة العريقة، غير أن إنجاز هذا المشروع الكبير على مراحل متعددة من شأنه أن يذلّل هذه العقبات، سيما وأن إجراء التحيين بالاستعانة بالوسيلة المعلوماتية يتيح استكمال الخانات الفارغة أثناء الاستغراق في إنجاز القاموس وعلى امتداد الأوقات التي تعقب عملية تعميم المنتج على الجمهور المتلقي بشتى مستوياته الثقافية وتطلعاته عند تصفح القاموس ورقيا أو رقميا.

1- آلان راي، نفس المرجع السابق.